وحدة الوجود عند محمد وفا الشاذلي وابنه

لقد تكررت عقيدة وحدة الوجود عد كثير من مؤسسي الطرق الصوفية، وتناقلوها وعلموها مريديهم وأتباعهم ودونوها في كتبهم، وقد أصبحت من صلب عقيدة كل صوفي، وليس فقط أنها قد تقع زلة من شيخ أو خطأ من مريد أو نحو ذلك، وهذا أحد مؤسسي الطرق الوفائية والذي تظهر هذه العقيدة في أقواله واضحة جلية فلننظر إلى بعض نصوص ونفهم ماذا يعني..

يقول محمد وفا([1]) الشاذلي الغوث مؤسس الطريقة الوفائية:

قال لي الحق: أيها المخصوص، لك عند كل شيء مقدار، ولا مقدار لك عندي، فإنه لا يسعني غيرك، وليس مثلك شيء، أنت عين حقيقتي، وكل شيء مجازك، وأنا موجود في الحقيقة، معدوم في المجاز، يا عين مطلعي، أنت الحد الجامع المانع لمصنوعاتي، إليك يرجع الأمر كله، وإلي مرجعك، لأنك منتهى كل شيء، ولا تنتهي إلى شيء، طويت لك الأرضين السبع في سبع من الحب والنوى، المتنوعة بالفعل إلى أصناف من نبات شتى، فإذا شئت على نشرها، أوْلجت فيها جواهر السماء، اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج **{إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [فصلت:٣٩]([2]).

– هذا العارف محمد وفا يتبع في تصريحه وتبيانه للحقيقة في هذا النص، أسلوب الحلاج والبسطامي وابن عربي وابن الفارض وغيرهم، لكن بشكل معكوس، فالحلاج قال: أنا الله، والبسطامي: أنا أنا، أو سبحاني، وهذا يقول: قال لي الحق، فالحق –سبحانه وتعالى عما يصفون– هو الذي يقول لمحمد وفا: ليس مثلك شيء، أنت عين حقيقتي، يا عين مطلعي، إليك يرجع الأمركله.

ويقول علي وفا([3]) (ابن محمد وفا) وهو غوث أيضاً: لا يصح لأحد أن يقول في استفتاحه: **{وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** [الأنعام:٧٩] حتى لا يرى غيره، ولا المصلَّى، ولا القبلة، ولا المناجي، فاجعل ربك مشهودك دون غيره([4]).

من أعجب الأمور قول الحق تعالى لسيدنا موسى عليه السلام: **{لَنْ تَرَانِي}** [الأعراف:١٤٣]، أي مع كونك تراني على الدوام، فافهم([5]). **{وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}** [العنكبوت:٤٥] وهو شهود ذاته وحده لا شريك له، لم يكن شيء غيره فافهم([6]).

- وكان يقول في قوله: **{أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ}** [فصلت:٥٤]: أي كإحاطة ماء البحر بأمواجه معنى وصورة، فهو حقيقة كل شيء، وهو ذات كل شيء، وكل شيء عينه وصفته، فافهم([7]).

وكان يقول في حديث: (**أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني**) أي: مهما تصوريني به من الصور، كنت ممده من أفق تلك الصورة بحكمها، فافهم([8]).

وكان يقول: ما عبد عابد معبوداً إلا من حيث رأى له وجهاً إلهياً([9]).

وكان يقول في حديث: (**فإذا أحببته كنت سمعه. وفي رواية: كنته**) ليس المراد به معنى الحدوث في نفس الأمر! لأنه كذلك بالذات، وإنما ذلك ليكون الشهود مرتباً على ذلك الشرط الذي هو المحبة، فمن حيث الترتيب الشهودي جاء الحدوث لا من حيث التقرير الوجودي، فافهم([١٠]).

قوله: (**كنت سمعه**) هذا حديث مشهور يستغله الصوفية أبشع استغلال، يحرفون معناه ويعطونه معنى هو في نظر الإسلام كفر.

وكان يقول -وهي عبارات تشير إلى وحدة الوجود يقدمها بين يدي القوم-:

ما عبد الله أحد إلا على الغيب، لكن فتح لك الشرع الذوقي، في الذوق الشرعي المحمدي باباً إلى الجمع، بأن تشهد كل شيء من معبودك، حتى عبوديتك، فتراه هو الذي يجري الأحكام عليك، ويقيمها فيك بقيوميته، فتصير عند شهودك هذا تعبده كأنك تراه، لأنك لو رأيته، رأيته وجودك القائم بجميع صفاتك، وسمى اللسان المحمدي هذا الشهود مقام الإحسان، وليس بعده إلا مقام الإيقان، وهو العيان([11])، فافهم. (أرجو الانتباه إلى معنى: الإحسان، عندهم).

وكان يقول في معنى حديث: "كنت كنزاً لا أعرف..."، يعني: مرتبة التجرد... "فأحببت أن أعرف فخلقت خلقاً..."، أي: قدرت أعياناً تقديرية، {وتعرفت إليهم ودللتهم على كل منها بكل منها، ...فبي عرفوني}، أي: لأني أنا الكل، هذا حقيقة هذا الكلام في التحقيق، وله في الفرقان من معان أُخر، وكل من عند الله، فافهم([١٢]).

وكان يشير أن يكون صدر كل كتاب هو: (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه...أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وهو هو بما هو، سيدي وربي، وهو مولاي وحسبي، ليس إلا هو)([13])...

وكان يقول:

...فهو تعالى ذات كل موجود، وكل موجود صفته، وليس لها مبدأ أول إلا هو، إذ ليس بعده إلا العدم، والعدم لا يكون مبدأ، سيما لموجود([١٤]).

* ملحوظة هامة:

هذا الكلام ينفي عن الله سبحانه قدرة الإيجاد من العدم! وهو واضح للمتأمل.

وقوله: (هو ذات كل موجود) هو مثل قول الآخر: (وما الكلب والخنزير...أو اجتمع فيه النجو مع الورد، وغيرها).

وكان يقول: من هو بكل شيء محيط، لا يسعه شيء، هذا ومعه شيء! فكيف بمن هو كل شيء؟ ولم يكن شيء غيره، ويكفيك هذا فاصبر نفسك في جدك أو أثبت التجريد([15]).

هذا قليل من كثير واللبيب يفهم بالإشارة، ولا حاجة لاستعراض النصوص الكاملة. ([16])

([1]) محمد وفا، من أكابر العارفين، خاتم الأولياء، صاحب الرتبة العلية، مات سنة (٧٦٥هـ) في القاهرة.

([2]) طبقات الشعراني: (٢/٢٢).

([3]) هو وأبوه من سلسلة الخرقة الشاذلية، مات في مصر سنة (٨٠١هـ) حسب طبقات الشعراني، و(٨٠٧هـ) حسب جمهرة الأولياء وشذرات الذهب وغيرها.

([4]) طبقات الشعراني: (٢/٢٣).

([5]) طبقات الشعراني: (٢/٢٣).

([6]) طبقات الشعراني: (٢/٢٣).

([7]) طبقات الشعراني: (٢/٢٣).

([8]) طبقات الشعراني: (٢/٣٢).

([9]) طبقات الشعراني: (٢/٣٢).

([10]) طبقات الشعراني: (٢/٢٤).

([11]) طبقات الشعراني: (٢/٢٧).

([12]) طبقات الشعراني: (٢/٣٢).

([13]) طبقات الشعراني (٢/٤٠).

([14]) طبقات الشعراني: (٢/٤٥).

([15]) طبقات الشعراني: (٢/٤٢).

([16]) اقتبس هذا المقال من كتاب: (الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ) للمؤلف: (محمود عبد الرؤوف القاسم).